الباب الثاني

فجر القومية العربية

١ — القومية العربية قبيل ظهور الإسلام

كان العرب ينقسمون فى الجاهلية إلى قبائل ، والقبيلة هى الوحدة التى انبنى عليها النظام الاجتماعى ، وكانت القبائل فى نزاع دائم ، فقد تتحالف القبيلة مع قبيلة أو قبائل أخرى للإغارة على حلف آخر أو لرد غارة ، أو نحو ذلك من الأغراض ، وقد تمرّ الأجيال وتنسى القبائل المتحدة أسماءها وشخصيتها ، وتنضم تحت اسم واحد هو اسم أقواها ، ثم قد يزعمون فيما بعد أنهم من أب واحد وأم واحدة .

يقسم النسّابون العرب إلى قسمين : عرب الشمال وهم من نسل إسماعيل ابن إبراهيم ، وعرب الجنوب من نسل قحطان . ويسمى أهل الجنوب عادة اليمنيين أو القحطانيين ، وأهل الشمال العدنانيين أو المعديين ، وكان الخلاف الجوهرى بين القسمين هو الحضارة ، فقد عاش القسم الجنوبى حياة متحضرة وحياة استقرار ، بينما أهل الشمال تغلب عليهم البداوة ، وعدم الاستقرار . ولكن هذين القسمين لم يكونا منفصلين تمام الانفصال ، فقد كانت الصلات دائمة مستمرة ، فقد رحل كثير من أهل اليمن قبل الإسلام إلى بلاد الحجاز نتيجة انهيار سدّ مأرب فى اليمن ، كما هاجر بعض أهل الشمال إلى اليمن نتيجة تكاثر عددهم وحاجتهم إلى الاستقرار فى أرض أكثر خيرات وخصوبة .

كانت هناك رابطة تجمع القبائل العربية ، رغم اختلافها ونزاعها الدائم

المستمر . وكان نظام (الأحلاف) السائد فى الجاهلية خير مظهر لهذه القومية العربية . كان عرب الجاهلية يتبعون المثل السائر (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) وإذا دخلت قبيلتان فى حلف كان لكل فرد من إحدى القبيلتين النصرة على أفراد القبيلة الأخرى . عقدت قريش (حلف الفضول) وكانت ترد كل مظلمة بمكة إلى صاحبها لا فرق فى ذلك بين قرشى وغيره . وهى روح تنم على (القومية العربية) وتنافى العصبية الجاهلية .

كان كل من الغزو والحرب والسلب جزءاً من حياة العرب ، فقد اعتادت القبيله القوية أن تتربص بقبيلة أخرى ضعيفة فتغير عليها وتسلب إبلها، وتسبى نساءها وأطفالها ، وتتربص بهم القبيلة الأخرى كذلك فتفعل بهم مافعلت بل هم إذا لم يجدوا عدوا من غيرهم قاتلوا أنفسهم .

ومن أسباب هذا النزاع الدائم ، تنافر البداوة والحضارة ، والصراع حول موارد الحياة والتنازع حول الشرف والرئاسة ، أما تنافر البداوة والحضارة فيبدو واضحا فى العداء الشديد بين أهل المدينة من الأوس والخزرج ، وهم يمنيون ، وأهل مكة وهم عدنانيون ، واستمر هذا العداء بعد ظهور الإسلام . أما الصراع حول موارد الحياة فكثيرا ما كان يدور بين بنى الأب الواحد ، فإننا نعلم أن حياة العرب قد اعتمدت على المراعى والماء . ولم يكن عند العرب نظم تنظم ملكية هذه الموارد الاقتصادية . كما كان التنازع حول الشرف والرئاسة سببا لحروب عديدة بين القبائل المتقاربة فى الأنساب والمكان . كما

كان بين بنى هاشم و بنى أمية بمكة ، و بين عبس وذبيان من قيس ، و بين بكر وتغلب من ربيعة .

كان إذا جنى أحدهم جناية حملتها قبيلته ، و إذا غنم فهى للقبيلة ولرئيسها خيرها ، و إذا أبت قبيلته أن تحميه لجأ إلى قبيلة أخرى ووالاها ، وحسب نفسه كأنه أحد أفرادها . فوطنية البدوى وطنية قبلية لا وطنية شعبية ، وهـذا الشعور بارتباطه بقبيلة يحميها وتحميه هو المسمى بالعصبيّة .

لم تـكن القبائل العربية فى الجاهلية منفصلة عن سائر القوميات الأخرى فقد كان العرب على اتصال بمن حولهم ماديا وأدبيا نتيجة التجارة . و إنشاء إمارتى الحيرة والغساسنة المتاخمة للفرس والروم . والبعثات اليهودية والنصرانية التى حاولت نشر تعاليم الدينين فى الجزيرة العربية .

ارتبطت جزيرة العرب بالممالك المجاورة بصلات تجارية كثيرة ، وعرفوا كثيرا من الطرق البرية والبحرية ، وقامت التجارة فى أول الأمر على أكتاف اليمنيين ، ثم حلّ محلهم عرب الحجاز منذ القرن السادس الميلادى . فـكان الحجازيون يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين ، ثم يبيعونها على حسابهم فى أسواق مصر والشام وفارس ، وكانت مركز الأعمال التجارية ، ولا شك فى أن هـذه العمليات التجارية كانت تؤدى إلى امتزاج فى الدماء واللغات والحضارات .

كانت الجزيرة العربية تقع بين دولتين عظيمتين ، الدولة الفارسية فى

فى الشرق ، والدولة الرومانية فى الغرب . وقد حاول الفرس والروم أن يخضعوا العرب لحكمهم اتقاء لغزوهم وسلبهم ، ولكن وقف أمامهم الصحراء العربية القاحلة الموحشة ، فرأى الفرس والروم أن خير وسيلة لاتقاء شر العرب أن يساعدوا بعض القبائل المجاورة على أن يستقروا على التخوم يزرعون و يتحضرون ، فيكونوا حصنا يمنع غارات البدو ، فتكونت إمارة الحيرة على تخوم الفرس ، و إمارة الغساسنة على تخوم الروم .

فرقت السياسة بين العرب اللخميين فى الحيرة ، وعرب الغساسنة بالشام فتنازعوا وتحاربوا ، ولكنهم اتفقوا فى مقومات كثيرة للقومية العربية ، فقد كان لهم لغة خاصة بهم غير لغة قريش التى سادت الحجاز ولم تستطع أن تسود الحيرة وغسان لبعد موطنهما . ولكن لغة الحيرة والغساسنة مع اختلافها عن لغة الحجاز قريبة منها لاتفاق الأصل الذى تفرعت عنه العرب لغاتولهجاتها ، كما أن اللخميين والغساسنة من أصل يمنى واحد .

انتشرت اليهودية فى جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام بفترة طويلة . ولكن من هم هؤلاء اليهود ؟ هل هم عنصر يهودى ، أم هم عرب تهودوا ؟ إن المصادر لم تعطنا إجابة فاصلة ،وفى الغالب أن هذين النوعين كانا موجودين فى بلاد العرب .

وانتشرت المسيحية بين العرب ، وكان المسيحيون فريقين : النساطرة

فى الحيرة ، واليعاقبة فى غسان والشام . وكانت أهم معاقل المسيحية فى الجزيرة العربية فى (نجران) .

كان هناك صراع عنيف دائم بين اليهود ، والمسيحيين ، ومن خلال هذا الصراع تبرز القومية العربية . فقد سعى اليهود إلى نشر اليهودية فى جنوبى الجزيرة ، حتى تهوّد كثير من قبائل اليمن . ومن أشهر هؤلاء المتهودين ذو نواس ، وقد اشتهر بتحمسه لليهودية واضطهاده لنصارى نجران . ولكن هـذا الاضطهاد كان يدل على القومية العربية ، فقد كان نصارى نجران على ولاء مع الحبشة . وكانت تعد حامية نصارى نجران ، وقد اتخذت النصرانية وسيلة للتدخل فى شئون اليمن. فأراد ذو نواس وقومه محو هذا النفوذ الحبشى. ولذلك عند ما قتل ذو نواس نصارى نجران استنجد بقيتهم بالحبشة فأنجدوهم . فغزوا بلاد العرب سنة ٥٢٢ م . ثم سنة ٥٢٥ م . وهزموا ذا نواس ، وأنشأوا مستعمرة حبشية على شاطىء البحر الأحمر . وحكموا تهامة واستمر حكمهم إلى سنة ٥٧٥ م . حيث غزا الفرس بلاد اليمن واحتلوها وطردوا الحبشة منها .

على الرغم أن عرب الحيرة كانوا يدينون بالكثير للفرس، إلّا أنهم كثيرا ما كانت تدفعهم القومية العربية إلى التعصب على الفرس . فيروى المسعودى فى كتابه (مروج الذهب) أن كسرى أبرويز أراد خطبة إحدى بنات العرب فأشار عليه عدىّ بن زيد بالخطبة فى بنى منذر . فقال له كسرى : اذهب

إليهم فى ذلك . فقال : إنهم لا ينكحون العجم و يستريبون فى ذلك ، فابعث معى من يفقه العربية . ولكن النعمان صدّه وقال : أما لكسرى فى مها السواد كفاية حتى تتخطى إلى العربيات؟ فغضب كسرى وحقدها على النعمان وكتب إليه يستقدمه ، فلما وصل إلى كسرى سجنه حتى مات فى السجن .

قدم النعمان بن المنذر إلى كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين فتحدثوا عن ملوكهم و بلادهم. وافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم، لا يستثنى فارس ولا غيرها ، وامتدح العرب بالعز والمنعة .

٢ — الرسول والقومية العربية

لم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم منذ قدم على المدينة مهاجرا بنشر الإسلام ، بل اهتم بوسائل توحيد العرب ، إذ قد أصبح زعيم جماعة من العرب لهم صفة سياسية ، بجانب كونه نبيا مرسلا عليه أن يبلغ الناس رسالة ربه كما اهتم الرسول بالقضاء على العصبية القبلية بين القبائل العربية حتى يستطيع أن يجمع العرب حول الدين الجديد . وكان الرسول يستشهد دائما بالآية الكريمة (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، كما كان الرسول يقول : (المؤمنون إخوة ، تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم) كما قال أيضا : (من قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة أو يدعو لعصبية أو ينصر عصبية فقتل قتلة جاهلية) . واهتم الرسول بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على الحق والمؤاساة فكانوا يتوارثون بهذا الإخاء إرثاً مقدما على القرابة ، فإذا مات المهاجر ورثه أخوه الأنصارى ، وإذا مات أحد الأنصار ورثه أخوه المهاجر . وأتت هذه المؤخاة أكلها ، فقد استطاع المهاجرون والأنصار أن يهزموا المشركين فى بدر فعزّ شأن الإسلام .

وكما حرر الرسول العرب من العصبية القبلية ، فقد حاول أن يحرر نفسه من التعصب للعرب ، فعلى الرغم من أنه كان عربيا قرشيا ، فإنه لم يتأثر بعادة التعصب للقبيلة ، فقد كان الإسلام يدعو إلى الاتحاد . فهو دين وطنى قومى

شعاره توحيد الصفوف فى الدين والاجتماع . أما فى الدين ، فقد وحّد الناس حول إله واحد بعد أن كانت الأوثان تعد بالمئات . وأما فى الاجتماع فقد وحّد الناس عامة ، لا فرق بين قبيلة وقبيلة ولا بين عربى وغير عربى .

حاول الرسول أن يتحرر من القومية العربية و يعتبر نفسه رسولا لجميع البشر ، فهدف إلى تحطيم الحواجز الجنسية . فكان يقول دائما : (بعثت إلى الناس كافة) ، كما خطب فى حجة الوداع فقال : (كلكم لآدم وآدم من تراب ليس لعربى على عجمى فضل إلّا بالتقوى) . كما كان يقول : (اسمعوا وأطيعوا و إن تأمّر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة) . وقرب الرسول إليه كثيرا من العناصر غير العربية التى اعتنقت الإسلام ، مثل سلمان الفارسى وصهيب الرومى و بلال الحبشى ، فكان سلمان مستشار الرسول فى موقعة الخندق ، كما كان بلال مؤذن الرسول

كان الرسول يرى أن اللغة العربية هى أساس القومية العربية الأولى ، فكل من يتكلم اللغة العربية فهو عربى مهما كان أصله أو عنصره . فقد جاء فى حديث للرسول : (يا أيها الناس إن الرب واحد ، والأب واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، و إنما هى اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى) . وقد نطق الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الكلام فى المسجد بعد أن أنكر رجل على سلمان الفارسى وصهيب الرومى و بلال الحبشى أن يكونوا عربا يحسب لهم حساب فى نصرة النبى .

لم يستطع الرسول أن يتحرر تماماً من تعصبه للعرب والعروبة . فقد نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليب العرب فى كلامهم. وكان الرسول لا يقبل من العربى إلّا الإسلام أو القتال ، فأصبح العربى لا يسترق مطلقا حتى لو وقع أسيرا فإما أن يسلم وإما أن يقتل .

ورغم تقريب الرسول لسلمان الفارسى ، ورغم مناداته أنه لا فضل لعربى على عجمى إلّا بالتقوى ، إلّا أنه كان يتعصب أحيانا للعرب على العجم . فقد كان يقول : (أيها الناس قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذل لكم العجم) .

وفى السنة الأولى من الهجرة كانت واقعة ذى قار بين بكر بن وائل وبين الجيش الذى بعثه إليهم كسرى الفرس خسرو أبرويز ، فهزمت العجم ، فلما علم الرسول بذلك قال : هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم . وهكذا فرح الرسول لانتصار العرب على العجم رغم عدم دخول هؤلاء العرب فى الإسلام بعد .

بل إن العرب المشركين فى قتالهم للرسول العربى والمسلمين لم يتحرروا من قوميتهم العربية . فقد خاف كفار مكة من نتائج تأييد الحبشة للمسلمين فإنهم لم ينسوا أطماع الحبشة فى بلادهم وتجارتهم وكعبتهم . فقرروا عندئذ مقاطعة المسلمين وتطرفوا فى عدائهم للرسول . واستغل الرسول القومية العربية فى مقاومته للمشركين . فحين بدأ الرسول يدعو إلى الحج لم يقصره على المسلمين،

بل شمل به كل من أراد الحج من أبناء القبائل العربية التى تشارك المسلمين فى تعظيم البيت والسعى إليه . فجعل له وللعرب أجمعين قضية واحدة فى وجه قريش ، وفصل بذلك بين دعواها ودعوى القبائل العربية الأخرى ثم أفسد على قريش ماتعمدوه من إثارة نخوة العرب وتوجيهها إلى مناوأة محمد والإسلام، وأفهمهم أنه وجماعة العرب ينتصر بهم العرب ولا يذلون بانتصارهم أو يقطعون مابينهم وبين آبائهم وأجدادهم . وكان لاتخاذ المسلمين الكعبة قبلة لهم فى السنة الثانية للهجرة وفرض الحج عليهم ، أثر كبير فى إثارة الشعور العربى وتقريب مسافة الخلف بين المسلمين فى المدينة والقرشيين فى مكة ، لأن مكة قد أصبحت مكانا مقدسا عند المسلمين والمشركين .

و بعد صلح الحديبية ، أخذت قريش تغير نظرتها إلى الرسول ، فأصبحت ترى أنه قرشى على الرغم من العداوة بينها و بينه ، و يجمعه وإياها نسب واحد ، وصارت تعجب بعلو شأنه و بخاصة السياسى ، مما حمل بعض رجالاتها كعمرو ابن العاص وخالد بن الوليد على الهجرة إلى المدينة ومبايعة الرسول على الإسلام.

أصبحت بلاد العرب بعد انتشار الإسلام فيها تجمع بينها عقيدة واحدة ، وقد مهدت هذه الرابطة الدينية إلى قيام وحدة سياسية تجمع شمل العرب ، كما ظهر بين العرب شعور بالوحدة القومية بعد أن دخلوا تحت لواء الرسول مما ساعد على قيام الدول العربية الإسلامية على أساس الوحدة الدينية .

٣ — القومية العربية فى عهد الخلفاء الراشدين

نجح الإسلام فى القضاء على العصبيةالقبلية فتحول التيار الذى كان يغذى العصبية القبلية إلى تغذية عصبية أخرى هى العصبية الإسلامية التى تجعل من المسلمين خير أمة أخرجت للناس ، وتجعل فى الإسلام مايغنى عن الحسب والنسب . ولكن بعد موت الرسول عادت العصبية القبلية إلى الظهور ، وتفتتت القومية العربية التى أنعشها الإسلام تجلى هذا واضحا بعد وفاة الرسول مباشرة ، خلال الصراع حول من يتولى الخلافة ، فقد احتد الخلاف بين المهاجرين والأنصار ، وعاد عداء الأوس والخزرج مرة أخرى،ولم ينقذ الوحدة الإسلامية والوحدة العربية سوى اختيار أبى بكر خليفة .

ولكن سرعان ما ظهر خطر جديد هدد الإسلام والقومية العربية ، وهو ارتداد بعض العرب المسلمين عن الإسلام . وتجلت العصبية القبلية واضحة فى حروب الردة ، فقد طالب مسيلمة الكذاب ، مدعى النبوة ، أن يكون نصف الأرض لقريش ولبنى حنيفة نصفها ، والتف حول مسيلمة أربعون ألفا تدفعهم العصبية ، فكان بعضهم يقول أشهد أن مسيلمة كذاب وأن محمدا صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر .

أدرك أبو بكر أن (الأمة العربية) لاتستطيع أن تنشر دينها الإسلامى إذا لم توحد صفوفها ، وتمشى إلى العالم صفا واحدا وقلبا واحدا . فلما توحدت

الأمة العربية ، أصدر أمره إلى العرب بالزحف إلى العراق والشام .

ظلت الأمة العربية فترة طويلة محصورة فى جزيرتها قانعة بصحرائها ووديانها ، قواها متفانية فى حروبها بعضهم مع بعض ، والأمم المجاورة لها قد ملكت عليها أمرها فى أخصب بقاعها ، وإن كان للعرب ملك أو رياسة فعلى أنهم عاملون لغيرهم من الفرس أو الروم، حتى جاء الإسلام فتكونت منهم تلك الأمة العظيمة التى سلبت أقوى الأمم سلطانها .

قبل الفتوح ، لم تكن القومية العربية قاصرة على شبه الجزيرة العربية ، فقد عاشت جماعات من العرب فى أقطار خارج الجزيرة العربية . فقد أخذ الساميون من سكان الجزيرة يهاجرون إلى الأقطار المجاورة كالعراق والشام ومصر وغيرها . ولم يكن الفتح العربى حركة مفاجئة، إذ أن الهجرة إلى الهلال الخصيب كانت مستمرة منذ سنة ٣٥٠٠ ق م ، وتنتهى هذه الهجرات العربية عادة بتكوين جماعات مستقرة ، وسببت هذه الهجرات مشاكل عديدة على الحدود لكل من الدولتين الساسانية والبيزنطية ، فرأت كل منهما تنظيم هذه الهجرات ، ولذا أقامتا دولتى المناذرة والغساسنة لتقفا فى وجه القبائل النازحة . ولكن الدولتين سرعان ما أهملا شأن الإمارتين مما أدى إلى ضعفهما و إلى تدفق العرب ، فكان الفتح العربى آخر هجرة سامية كبيرة .

هذه الموجات السالفة لم تكن تحمل طابع الفتح ولا الاحتلال ، فقد كان العرب الساميون يغادرون مواطنهم الأولى إلى ماحولها من البلاد طلبا للسكن

والعيش . فقد كان يسكن العراق قبل الفتح قبائل عربية من ربيعة ومضر ، كما سكن فى الشام قبائل عربية كغسان ولخم وجذام وكلب وقضاعة وطائفة من تغلب . ولا شك فى أن غرض الفتوحات فى عهد أبى بكر هو نشر الاسلام خارج شبه الجزيرة العربية ، لكنها أدت بالتالى إلى ضم هذه القوميات العربية الصغيرة إلى القومية العربية الكبرى التى كانت فى شبه جزيرة العرب.

ماذا كان موقف عرب العراق ، وعرب الشام من الفتوحات العربية الإسلامية ؟ كان العرب أمام حركة الفتح ينحازون فى فريقين اثنين : العرب غير النصارى ، والعرب النصارى . أما العرب غير النصارى ، فإن الروايات لا تمدنا بما نستطيع أن نحدد به موقفهم ، ولكن يبدو أن الحركة الإسلامية سرعان ما طوتهم ، ولم يستعص على العرب الفاتحين ضمهم إلى جانبهم . أما العرب النصارى فقد كان موقفهم أكثر تحديدا ووضوحا . فقد وقف معظمهم موقف المعارضة ، فقد عرف بنو النمر و بنو تغلب بولائهم الدائم التام للفرس . ففى معركة (عين التمر) واجه خالد جيشين كبيرين ، جيش فارسى بقيادة مهران بن بهرام ، وجيش عربى بقيادة عقبة بن أبى عقبة ويتألف من قبائل عربية أشهرها نمر و إياد وتغلب . وفى معركة (دومة الجندل) كان خالد يحارب كثيرا من العرب من بنى كلب .

كان عرب الحيرة قد تمتعوا خلال الحكم الفارسى بنوع من الاستقلال الذاتى ، ولذا رأوا أن الفتح العربى الإسلامى يحرمهم من هذا الاستقلال .

ولكن نظرة العرب الفاتحين كانت تغاير نظرة عرب العراق ، فقد اعتبر خالد ابن الوليد فتحه للحيرة تحريرا لهذه الفئة من العرب من الحكم الفارسى وضمهم إلى إخوانهم فى القومية العربية عرب شبه الجزيرة العربية . فقد روى الطبرى أن وفدا من أعراب الحيرة قصد خالدا يسألونه عن شروط التسليم ، فسألهم : ما أنتم ؟ أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم ؟ فما تنقمون من الإنصاف أو العدل ؟ فقال رئيس وفد الحيرة العربى : بل عرب عاربة وأخرى متعربة . فقالد خالد : لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا؟ فقال رئيس الوفد. يدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلاّ العربية . ثم خيرهم خالد بين أمور ثلاثة : الإسلام ، أو الجزية ، أو القتال. فاختاروا الجزية . فغضب خالد وقال: تبا لكم ، ويحكم إن الكفر فلاة مضلة ، فأحمق العرب من سلكها . وهكذا نرى أن عرب الحيرة رغم اشتراكهم مع العرب الفاتحين فى الدم واللغة ، فضّلوا دفع الجزية على دخولهم فى الإسلام ، ورأوا الاحتفاظ باستقلالهم وشخصيّتهم .

غير أن الزمن خفف من حدة هذه المقاومة ، واستجاب العرب وغيرهم إلى هاتف القومية العربية وأقبلوا على الإسلام ، ولم تتمسك بالنصرانية من القبائل العربية سوى تغلب ، أما سائر القبائل العربية التى دانت بالمسيحية قرونا فقد نبذتها عند الفتح لتدين بالإسلام . فبعد موقعة القادسية سنة ١٤ هـ وبعد هزيمة جيش رستم الفارسى ، قدم على المسلمين أعداد كبيرة من المسيحيين الذين ينتمون إلى قبائل البدو التى كانت

تقيم على نهر الفرات يعلنون دخولهم فى الإسلام وانتهى أمر القبائل العربية النصرانية إلى الامتزاج بالمجتمع الإسلامى الذى كان يحيط بهم عن طريق مايسمونه (الاندماج السلمى) . ولا شك أن القومية العربية لعبت دورا كبيرا فى هـذا الاندماج . ولو أن المسلمين حاولوا إدخالهم فى الإسلام بالقوة عند ما انضموا بادئ الأمر تحت لواء الحكم الإسلامى لما كان من الممكن أن يعيش المسيحيون بين ظهرانيهم حتى عصر الخلفاء العباسيين .

أدّت حركة الفتوح إلى المزج بين القبائل واختلاطها ، وتحطيم ما كان فى الجاهلية من حواجز تفصل بينها وتجعل منها جماعات مغلقة ، كما أدت إلى التآخى بين أفراد المجتمع الجديد . لا فى العقيدة فحسب بل فى مواجهة الحياة ، والاتحاد فى سبيل الدعوة ، والاشتراك فى التضحية ، وبدت الجزيرة العربية منذ أن انتفضت منطلقة وراء حدودها كأنما أضحت أمة واحدة نسيت خلافاتها وعصبيتها القديمة وأهدرت ما بينها من فروق النسب والدم ، والتقت فى ظل الإخاء على دعوة واحدة تدعو إليها وتخرج من أجلها .

نتجت عن حركة الفتوح نتيجتان عظيمتان : النتيجة الأولى تعزيز القومية العربية ، والنتيجة الثانية صراع القومية العربية مع القوميات الأخرى .

لم يكن خروج العرب للفتح قبلىّ الصورة ، ولم يكن الانتداب للحرب يتخذ شكلا قبليًا . كان الخليفة يبعث إلى المدن والقبائل يستنصرها ويرغّب فى الجهاد ، فكانت تتوافد عليه الجموع فيوجهها حيث يشاء ، ويمد بها الجنود

الذين يحتاجون إلى مدد . وهكذا لم يخرج العرب إلى الفتوح فى نطاق القبيلة ، وإنما كانوا يخرجون مؤمنين بفكرة يعملون على تنفيذها .

لقد امتزجت القبائل بعضها ببعض خلال عمليات الفتح ، وبعد انتهاء الفتوح واستقرار الجيوش فى الأمصار المفتوحة . فيحدثنا الطبرى أن الجنود العرب كانوا يخرجون ومعهم نساؤهم ، ويحدثنا أنه لم يكن من قبائل العرب أحد أكثر نساء يوم القادسية من بجيلة والنخع ، كان فى النخع سبعمائة وفى بجيلة ألف ، وأن هؤلاء وهؤلاء صاهروا أحياء العرب وأن المهاجرين تزوجوهن حتى استوعبوهن ، ولذا كانت النخع وبجيلة تسمى لذلك أصهار العرب أو أختان المهاجرين . ورواية الطبرى هذه تصور تماما تزاوج القبائل واختلاطها .

وليس أدل على مدى الاختلاط فى المدن المفتوحة من أن نقرأ أسماء القبائل والجماعات التى نزلت الكوفة فنجد فيها قبائل من الشمال وقبائل من الجنوب ، قبائل من ربيعة وقبائل من مضر ، من الحجاز ومن نجد ، وكانت هناك عملية دمج تمضى فى طريقها شيئا فشيئا . ولا شك فى أن هذا الاختلاط وهذا التقارب أدى إلى تعزيز اتحاد العرب .

ما كادت تبدأ مرحلة الاستقرار ، حتى عادت العصبية القبلية إلى الظهور مرة أخرى : لقد تناست القبائل العربية عصبيتها وعداوتها أمام عدوها المشترك ، ولكن ما كاد هذا العدو يتلاشى حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من عداء وتنافس وتعصب . لقد أثبتت هذه القبائل أن الإسلام على فرط ما حارب

العصبية القبلية فإنه لم يقض عليها ولم يمحها من نفوس أصحابها ، ولكنها تضاءلت في نفوسهم .

وضع العرب الفاتحون أسس العصبية القبلية فى الأمصار المفتوحة والمدن الجديدة . كان مسجد الكوفة هو أول بناء خطه سعد بن أبى وقاص فى الكوفة ، وحرص سعد على أن يمثل هذا المسجد الروح القبليّة أصدق تمثيل ، فجعل لكل قبيلة مكانا بهذا المسجد . فأزال سعد الحكمة التى قصدها الله من الصلاة ، وهى أن يتساوى جميع المسلمين بين يدى خالقهم ، وقسّم سعد الكوفة إلى قسمين ، فكان القسم الشرقى لليمنية ، والقسم الغربى للقيسية . وقسمت البصرة إلى خمسة أقسام قبليّة . وكان لكل حى مسجد ومقبرة ، وكأن هذه القبائل أرادت أن يبتعد بعضها عن بعض حتى فى الموت .

غلب طابع الحياة الجاهلية على الحياة فى المدن الجديدة ، فلم يتم للعرب فيها اندماج تام يجعلهم ينسون حياة العصبيّة القبليّة الجديدة ، بل استمر سكانها يشعرون أنهم قبائل وإن عاشوا فى المدن وخدمهم الأعاجم ، وأصبحت القبيلة هى الوحدة الاجتماعية الطبيعية ، وظل الفاتحون يتبعون تنظيمهم القبلى . واحتفظت هذه الجماعات المتشعبة بكل ماضيها القديم من حيث النسب والتآلف والتباغض . فقد كانت العلاقة بين رجال القبيلة الواحدة أوثق من العلاقة بين سكان المدينة الواحدة . وكان للقبائل العربية النازلة فى المدن الجديدة رؤساء يشبهون رؤساء القبائل فى العصر الجاهلى من حيث سيادتهم على قبائلهم ،

ووقوف الشعراء بأبوابهم . ويعتبر الخلفاء مسئولين عن إحياء الروح القبليّة لأنهم كانوا يتصلون بجمهور الناس عن طريق زعماء القبائل ، فكان الخليفة يؤكد ويؤيد تعيين رئيس القبيلة ويزوده بسلطة عسكرية وادارية ومالية . وجرف العرب الموالى إلى تيار العصبية القبلية ، وكانوا بعيدين عنها قبل الفتح ، فكان أهل البلاد الذين يعتنقون الإسلام يدخلون فى ولاء القبائل العربية حتى يضمنوا حمايتها لهم ، وتعصّب كل قوم من الموالى للقبيلة التى حالفوها من العرب .

وفى كل مصر من الأمصار المفتوحة ، انقسم العرب إلى يمنية ومضرية ، وكان بين هذين الفريقين عداء مستحكم رغم تشابه العادات والأخلاق ، فبلغ اليمنيون درجة عظيمة من الحضارة قبل الإسلام ، فلما انتقلوا إلى الأمصار جنوا ثمار حضارتهم ، فأسسوا لهم حكومات منظمة ، أما المضريون فكان معظمهم — باستثناء قريش — قبائل بدوية رحّالة ، وكان كل بطن من بطونها فى عزلة عن الآخرين ، فتباينت نزعاتها وتباعدت مصالحها ، مما أدى إلى ضعفها وخضوعها إلى سلطان اليمنيين قبل الإسلام .

وبجوار العصبية القبلية ، كانت هناك عصبية المدن ، والعصبية الاقليمية . فقد اختصم سكان البصرة والكوفة فى خلافة عمر بن الخطاب حول الفتوح والفىء والخراج ، ففى سنة ٢٢ هـ كتب أهل البصرة إلى عمر يشكون عجز خراجهم وسألوه أن يضم إلى مصرهم بعض الأراضى التابعة للكوفة ، مما أدى

إلى خصومة أهل المصرين . وتعصبت البصرة على الكوفة ، وتعصب العراق على الشام ، فكان عرب كل مدينة أو كل إقليم يفخرون بما حفلت به مدينتهم أو إقليمهم من خيرات ، وبمن يقيم فيها من الصحابة والفقهاء والعلماء .

يدور التاريخ الإسلامي حول ما كان بين أهل البصرة وأهل الكوفة ، وما بين أهل الشام وأهل العراق . ولم يكن الانصراف عن القبيلة إلى المدينة ظاهرة جديدة فى المجتمع العربى الإسلامى تبدت فى خارج الجزيرة للمرة الأولى ، ولكنها كانت تبدت قبل ذلك فى الجزيرة نفسها وفى مطلع أيام الدعوة ، فتعصب المهاجرون على الأنصار أو أهل مكة على أهل المدينية ، وتكتل الجماعة الإسلامية حول هذين المحورين لم يكن إلاّ الصورة الأولى للتحول عن الحياة القبليّة إلى أفق أكثر سعة وأفسح مدى .

وبجانب هذا الصراع الداخلى ، كان هناك صراع آخر بين القومية العربية والقوميات الأخرى فى الأمصار المفتوحة . كان يسكن العراق قبائل عربية ، والسكان الأصليون ، والفرس (نصارى ومزدكية وزرادشتية) . وكان يسكن فارس ، الفرس وقليل من اليهود . بينما سكن الشام السوريون ، وهم أهل البلاد ، واليهود ، وبعض الأرمن والرومان ، وبعض قبائل عربية . وسكن مصر المصريون وبعض اليهود والرومان .

لم يفتح العرب الأمصار ولم يحكموها فحسب ، بل حاولوا أن ينشروا فيها قوميتهم العربية . وإذا كان الفرس استطاعوا أن يحتفظوا ببعض صفاتهم وبروحهم القومية — مما لم يستطع البيزنطيون مثله — لأن الفرس كانوا أكثر

صلابة فى القومية والوطنية من البيزنطيين، كما أن البلاد التي فتحها العرب والتي كان يحكمها الأكاسرة كانت فارسية وأهلها من الفرس ، هى خلاف مافتح العرب من بلاد الدولة الرومانية ، فإنها كانت أجنبية لارومانية ولا بيزنطية ، فبقاء الشعور القومى فى فارس طبيعى ومنطقى ، ولهذا بقيت (القومية الفارسية) شوكة فى جنب الدولة العربية .

جاهد العرب كثيرا فى الاحتفاظ بقوميتهم العربية ، فلم يفنوا ذاتيتهم ولا شخصيتهم كما فعلت القبائل الجرمانية حينما استولت على روما ، وكما أضاع المغول شخصيتهم لما تقدموا فى آسيا ، ولكنهم حفظوا قوميتهم وفرضوا دينهم ولغتهم على الممالك والجماعات التي حكموها ، وكان كل هذا بدون ضغط منهم .

ولكن رغم غيرة العرب على قوميتهم العربية ، فإنهم وجدوا أنفسهم منساقين رغماعنهم إلى الاختلاط والامتزاج بالقوميات الأخرى . ففى الأمصار المفتوحة ، تقبل كثير من الأهالى من غير العرب الإسلام ، ونزلوا الحواضر العربية ، وامتزجوا بالعرب وأخذ هؤلاء جميعا يشتركون فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية الجديدة، ولم يكن العرب أكثرية إلاّ فى الجزيرة العربية نفسها، أما فى الأمصار المفتوحة فقد كان العنصر الأجنبى يمثل الأغلبيّة .

امتزج العنصر العربى والعنصر الأجنبى تمام الامتزاج . فى فارس والشام ومصر والمغرب . حتى جزيرة العرب نفسها لم تعد جزيرة العرب ، بل صارت جزيرة المسلمين جميعا ، فقد كانت المدينة مقر الخلافة فى عهد الفتوح الكبرى

فى خلافة عمر ، فكان يقصدها الرسل وذوو الحاجات من الأمم الأخرى، ويأتى إليها الأسرى لأن تعاليم عمر كانت تقضى ألا توزع الغنائم والسبى فى البلاد المفتوحة، إنما يأتى بها إلى مقر الخلافة ثم توزع ، فامتلأت المدينة وما حولها بالعناصر غير العربية ، كما كانت مكة والمدينة مقصد الحجاج والزائرين من الداخلين فى الإسلام من بقاع الأرض ، وهذا جعل جزيرة العرب شائعة بين المسلمين ، تختلط فيها العناصر المختلفة ، وشأنها فى ذلك شأن الممالك الأخرى المفتوحة ، وليس من فارق إلّا أن العنصر العربى فى جزيرة العرب أكثر ، والعنصر الأجنبى فى الممالك المفتوحة أعظم .

شمل الامتزاج جميع نواحى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية والدينية . ولمّا كان العرب أقل حضارة من كثير من الشعوب الخاضعة لهم ، فقد اقتبسوا منها كثيرا من مظاهر الحضارة ، وخاصة النظم الإدارية . ولكن العرب فرضوا على هذه الأقوام شيئين عظيمين : اللغة والدين ، فقد سادت اللغة العربية وهزمت اللغات الأخرى الأصلية ، وصارت لغة الحكومة والعلم . ولكن صراع اللغة العربية واللغات الأخرى أدّى إلى دخول كلمات أعجمية فى اللغات العربية كما انتشر الإسلام انتشارا عظيما واستطاع أن يتغلب على الأديان الأخرى ، ولكن تأثرت العقيدة الإسلامية بالعقائد الأخرى ، فالذين دخلوا الإسلام من الأمم الأخرى لم يتفهموا الإسلام كما تفهمه العربى ، حتى المخلصون منهم فى اعتناق الإسلام إنما فهموه مشوبا

بكثير من تقاليدهم الدينية القديمة ، وعقائدهم السابقة .

يرى البعض أنه لم تكن هناك حضارة عربية ، وإنما كان هناك حضارة أمم إسلامية ، ويذهبون إلى أن الأمم التى دخلت الإسلام حملت معها حضارتها وثقافتها ، فنشأت من هذه الحضارات والثقافات الحضارة الإسلامية ، وإذا فالحضارة الإسلامية لا يمكن أن تنسب إلى العرب إنما يجب أن ترد وتعود إلى هذه الأمم المختلفة التى خضعت للإسلام .

وإن كنا لا ننكر فضل الشعوب التى اعتنقت الإسلام على الحضارة العربية الإسلامية ، فإننا نذكر أن هذه الأمم التى خضعت للعرب المسلمين قد عملت معا للحضارة العربية ، لأن الحضارة العربية فى الواقع تختلف كل الاختلاف عن الحضارات السابقة ، وليست وليدة عنها فحسب ، وسبب ذلك أن هذه الامبراطورية الإسلامية التى ترامت أطرافها ، وتعددت ممالكها ، كانت ترتبط إما سياسيا أو دينيا أو تجاريا بعضها مع بعض ، وكانت هناك عوامل تعمل على نقل الحضارات والثقافات من بلد إلى آخر ، وكان اجتماع المسلمين فى مكة زمن الحج عاملا هاما فى امتزاج الأخلاق والعادات والثقافات مما أدى إلى توثيق العلاقات الثقافية والاجتماعية بين الأمم العربية الإسلامية ونقل الثقافات والحضارات .

إن الشعوب التى كانت تسكن الأمصار المفتوحة وجدت من مصلحتها اعتناق الإسلام وحين يعتنقون الإسلام كانوا يسمون أنفسهم عربا ، وراحوا يقدمون ذكاءهم وعلومهم ومعارفهم لتعزيز الدين الجديد ، وأخذوا فى الوقت

نفسه يكتبون بالعربية . ومع اعترافنا بأن الأمم التى عززت الحضارة العربية الإسلامية . كان معظمها من غير العرب إلّا أن هذه الأمم نفسها حين تقبلت الإسلام وتقبلت معه العنصرية العربية ، أخذت تتوالد وتعيش بين العرب وتحت ظل الحكومة العربية بحيث أصبحوا عربا مع الأيام وتناسوا تقاليدهم الماضية وثقافاتهم السابقة .

كان الطريق ممهدا لامتزاج حضارة العرب بحضارة أهالى الأمصار المفتوحة ، فقد كان العرب أميين ، فاضطروا إلى الاعتماد على غيرهم فى الإدارة والكتابة والشئون المالية ، لكنهم أدخلوا تعديلات على نظم البلاد المفتوحة بما يلائم الإسلام .

لم تكن عناصر سكان الأمصار المفتوحة غريبة على العرب الفاتحين ، كما أن فروقهم الدينية لم تقف حائلا فى سبيل تكوين مجتمع سرعان ما تكلّم العربية واعتنق الإسلام ، وانضم إلى القومية العربية . فقد كانت الحضارات زمن الفتح العربى متقاربة فى مختلف المواطن ، فالحضارة الإغريقية غلبت الحضارة الرومانية فى القسطنطينية ، وهذه أخذت الكثير من الحضارة الفارسية لاتصالها السياسى والحربى ، كما أخذ الفرس عن اليونان من قبل ، ومن المؤكد أن الحضارة العربية الإسلامية كانت فى أول الأمر مزيجا من الحضارتين الآرامية والعربية ، ولكن هذا لم يستمر بعد امتزاجها بالحضارات اليونانية والرومانية والفارسية وحضارات وسط آسيا .

أدّى اختلاط الحضارات إلى اختلاط الأنساب وتداخل الشعوب .وكان السبي أبرز عوامل مزج الدماء ، فقد وزع كثير من أبنـاء البلاد المفتوحة ونسائهم على الجند العرب كغنائم ، فـكان لـكل جندى من العبيد والإماء عدد يستخدمهم فى قضاء حوائجه ، و يستولد الإماء إن شاء ، فلم يعـد البيت العر بى بيتا عر بيا صحيحا بل أصبح بيتا مختلطا ، فـكانت الإماء يلدن أولادا يحملون الدم العر بى من جهة الأب والدم الأجنبى من جهة الأم .

هذا الصراع الداخلى الذى دار بين العرب ، وذلك الصراع الذى دار بين القومية العر بية والقوميات الأخرى فى الأمصار المفتوحة ، وذاك الاختلاط والامتزاج ، و إن اتفق فى الظروف والنتائج ، إلّا أنه اتخذ صورا شتى باختلاف طبيعية هذه الأمصار ، مما يجعلنا نتناول هـذه الصور بشىء من التخصيص والتفصيل .

أ — القومية العر بية فى الشام :

دخل الفاتحون العرب بلاد الشام ومعهم قوميتهم العر بية ، فوجدوا هناك قوميات مختلفة . فإن بلاد الشام بلاد غنية خصبة ، تعاقبت عليهـا المدنيات المختلفة فأورثتها علمها وحضارتها وقوميتها ،فـكل من الفينيقيين والـكلدانيين والمصريين والعبريين واليونانيين والرومانيين كان لهم مدنية وقومية.

أمّن العرب الفاتحون أهل الشام ، على اختلاف قومياتهم ، على أنفسهم

وأموالهم ، وكانت كتب الصلح العديدة توضح تماما هـذه السياسة . بل إن العرب المسلمين لم يكونوا قساة مع الروم ، وهم الذين جابهوهم بالحرب وقابلوهم بالقوة ، فإنهم لا يريدون عداوتهم ما دام غرضهم البعيد أن يتألفوهم فى دعوتهم ، وأن يضموهم إلى قوميتهم ، وأن يطووهم فى دينهم بقدر الإمكان ، فلذا فهم لم يخرجوهم من الشام أسرى مقيدين ، ولم يدعوهم أرقاء مستعبدين ولا شك أن هذا اليسر والتسامح لعب دورا كبيرا فى التقريب بين الفاتحين والمغلوبين . فلم يشعر السكان أن هناك طبقة من فوقهم تعيش عالة عليهم ، ممّا أدّى إلى اقتراب القوميات ثم امتزاجها ، كما مهّد الطريق أمام التعريب الجنسى واللغوى .

أما التعريب الجنسى فى بلاد الشام فقد كان سهلا ميسورا . فقد كان انتصار العرب على الروم إيقاظا للقرابة القديمة التى تصل بين عرب الشام وعرب الجزيرة ، وقوت اللغة العربية الواحدة هـذه القرابة . وأرادت هـذه القبائل العربية المستقرة ببلاد الشام أن تكون حلقة الاتصال بين العرب الفاتحين وسكان بلاد الشام الأصليين . وبدأت هذه القبائل تهتم بأنسابها وتربط بين هجرات القبائل فى الجاهلية وبين أصولها فى الجزيرة العربية .

وكما لعبت هذه القبائل العربية دورها فى التعريب الجنسى ، قامت بالدور الأول فى التعريب اللغوى . فقد أخذ عرب الشام يتعلمون لغة قريش ، وبدأوا يعلمونها لأهل الشام ، ويتكلمون بها مع لغتهم الآرامية أو اليونانية ، كذلك أخذ الإسلام يحل فيها محلّ النصرانية واليهودية . واعتنق كثير من أهل الشام

الإسلام ، وأرسل إليهم عمر بن الخطاب من يعلمهم الإسلام ، فتعلموا اللغة العربية جنبا إلى جنب مع تعاليم الإسلام .

ب — القومية العربية فى العراق :

سكن العراق قبل الفتح العربى ثلاثة عناصر: أولها بعض القبائل العربية من بكر وربيعة ومضر ، التى هاجرت عن اليمن عند حادثة سيل العرم وسكنوا منطقة الجزيرة بين نهرى دجلة والفرات . وثانيها بعض الفرس، وثالثها سكان البلاد الأصليين . فقد سبق الفتح العربى هجرة عربية وهجرات سامية ، ولم يكن الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى إلاّ تتمة لهذه الموجات السابقة .

كان الساميون فى العراق فرعين كبيرين : أولهما الآراميون وهم القبائل السامية الشمالية ، وكانت مواطنهم فيما بين النهرين والعراق ، أما الفرع الثانى فهم العرب ، وهم القبائل السامية الجنوبية . وكانت لغة الآراميين فرعا من اللغة السامية وتعرف باللغة الآرامية وانقسمت بتوالى الأجيال إلى أمم اشتهرت فى التاريخ أهمها أمة السريان فى ما بين النهرين والعراق ، والكلدان فى أعالى سوريا . . ولذا انقسمت اللغة إلى الفرعين السريانى والكلدانى .

أما العنصر الثانى من سكان العراق قبل الفتح العربى فهم الفرس، وكان معظمهم يعتنق مذهب زردشت . أما العنصر الثالث فهو سكان العراق الأصليين ، وكانوا بدورهم يتألفون من عناصر شتى متباينة مسيحيين ، ويهود ،

وصابئة ، وبوذيين ، ومانويين وكانت المسيحية قد أحرزت نصرا ملحوظا وخاصة فى الحيرة التى كانت تتبع الكنيسة النسطورية التى سيطر عليها السريان فى العراق والجزيرة .

كان للفتح الإسلامى العربى لبلاد العراق أثر كبير فى أهالى هذه البلاد ، فقد رحبوا بالعرب المسلمين كل الترحيب ، ووجدوا فيهم المنقذ المنشود الذى يخلصهم من ظلم دولة الأكاسرة الساسانيين . وإن كان بعض الفرس وقفوا إلى جانب كسرى فى قتاله للعرب ، إلاّ أن غالبية الفرس كانوا زاهدين فى المظاهر القومية ، إذ قد ضعفت معانى الاستقلال فى نفوسهم . وهم بما صاروا إليه من سوء الحال يحاولون أن يضعوا أيديهم فى يد كل من يعمل على تيسير سبل المعيشة لهم . كما وجدوا فى الفتح العربى خلاصا من الخدمة العسكرية وأملا فى تمتعهم بالحرية الدينية ، هذا بجانب المميزات الأخلاقية التى تمتع بها العرب الفاتحون.

انقسم السكان إزاء الفتح العربى إلى ثلاث طبقات : الطبقة المسالمة التى تضم أكثر الفلاحين الذين لم ينهضوا عن أرضهم ولم يشتركوا فى القتال ، وبدأوا يتخلصون من قوميتهم الفارسية ويقبلون على القومية العربية . والطبقة الثانية هى الطبقة المقاتلة وتشمل الفرس وبعض السكان الذين تمتعوا بالنفوذ فى ظل الحكم الفارسى ، والطبقة الأخيرة هى طبقة العرب .

أما الطبقة الثانية ، طبقة المقاتلين من الفرس ، فقد وقف الإسلام منهم موقف الغالب من المغلوب ، فسبوا عيالاتهم واستفاءوا أموالهم . وكانت هذه

الطبقة هى مصدر السبى الكبير،ونقل هذا السبى إلى الجزيرة العربية وتوزعته الأسر العربية الكبيرة لأن صغار الجنود كانوا ينزلون عن نصيبهم من الأسرى لحاجتهم إلى المال . ومن هذا السبى كانت ألوان من الزواج والولاء والتبنى ، وألوان عديدة من الاختلاط ، أدّى إلى آثار بعيدة فى القومية والفكر واللغة والعقيدة .

أما الطبقة الثالثة ، فهى طبقة العرب. فكان منهم العرب غير النصارى، ويبدو أن الحركة الإسلامية سرعان ماطوتهم . أما العرب النصارى،ومعظمهم من قبيلة تغلب ، فكانوا أكثر مقاومة . ولكن معاملة العرب المسلمين الطيّبة لهم كسرت من حدة المقاومة . ولاشك أن (القومية العربية) لعبت دورها فى تقريب هؤلاء العرب رغم الاختلاف فى الدين . فقد أمر عمر بن الخطاب أن تكون الجزية التى تدفعها تغلب مثل صدقة المسلم . وأثرت هذه المعاملة الطيبة فى موقف تغلب . فقد هاجر هؤلاء التغلبيون ومن أطاعهم من نمر و إياد إلى سعد بن أبى وقاص وخطوا معه الكوفة . وكان عمر مضطرا إلى هذا التساهل . فكان لتغلب مكانتها فى الجزيرة العليا ، وهى تجاور البيزنطيين من جهة ، والفرس من جهة أخرى . فرأى عمر أن تكون تغلب العربية فاصلا بين هاتين القوميتين المعاديتين للقومية العربية . ولكن للأسف أن معاملة عمر الطيّبة لم تثمر عند طائفة من عرب تغلب ، بل تغلب التعصب الدينى على القومية العربية . فقد خرج حىّ من تغلب إلى بلاد الروم،فكتب

عمر إلى ملك الروم يطلب إخراج هـذا الحى و إلّا أخرج جميع النصارى من الدولة الإسلامية وأرسلهم إليه . فأخرجهم ملك الروم فتفرق معظمهم فيما يلى الشام والجزيرة من بلاد الروم . ولاشك أن موقف تغلب حال بين العرب و بين وحدة الدين .

دخل العرب المسلمون العراق فى ظلال الوحدة التى أفاءها عليهم الجيش، فلم تـكن هجرتهم هذه المرّة مثل الهجرات السابقة من حيث الطابع القبلى . فـكانت هذه القبائل يجمعها دين واحد وهدف مشترك ، وكانت نظم الجيش والحرب تحتم امتزاج القبائل . ولـكن ما كادت عمليات الفتح تنتهى و بدأت مرحلة الاستقرار حتى تفتت هذه القومية العر بية المتحدة . فقد كان معظم من نزل البصرة من أنصار المدينة وعرب الشمال ، مثل مضر ور بيعة والأزد . أما الـكوفة فـكان معظم سكانها من الجنوب من أهل اليمن . وكان لـكل قبيلة حى ومسجد ومقبرة ، فـكأن العرب خرجوا من قبليّة الصحراء إلى قبليّة المدينة .

لم يندمج العرب الفاتحون بأهالى العراق الأصليين فى بادئ الأمر . و يرجع السبب فى ذلك إلى السياسة العر بية التى اتبعها عمر بن الخطاب ، فقد أمر هذا الخليفة بترك أرض السواد لأصحابها ورفض تقسيمها بين جنده العرب ، كما أمر قائده سعد بن أبى وقاص بأن لاتسكن الجيوش الإسلامية المدن وألا يخالطوا أهل العراق ، كذلك أمر عمر بأن تسكن الجند المعسكرات التى أقيمت

فى البصرة والكوفة ، على أن تظل محتفظة بطابعها كمعسكرات لا كمدن للسكنى . على أن سياسة عمر هذه لم يكتب لها البقاء، فقد سارع العرب المسلمون إلى الإقامة بالبصرة والكوفة واختلطوا بأهل البلاد و بدأت مرحلة التعريب اللغوى والجنسى .

كان تعريب العراق العربى سهلا ميسورا ، فقد نزلته القبائل العربية منذ الجاهلية ، وكانت على صلة وثيقة دائمة بالجزيرة العربية. وكان قيام دولة عربية كدولة المناذرة فى الحيرة بمثابة تمكين للقومية العربية من أن يأتى عليها الفرس. وكانت دولة المناذرة على صلات وثيقة بالجزيرة العربية، صلات نسب وتجارة.

أما تعريب العراق العجمى فكان أكثر صعوبة وعسرا، حيث لم تنتشر اللغة العربية مطلقا كما كانت اللغة الفارسية البهلوية لائمت إلى العربية بنسب أوصلة ، فاللغة الفارسية من الأسرة اللغوية الهندية الأوروبية ، بينما اللغة العربية من الأسرة اللغوية السامية .

ورغم ذلك ، فقد ساعدت عدة عوامل على انتشار اللغة . أولها أن الدين الإسلامى عربى اللغة فسار اعتناق الإسلام جنبا إلى جنب مع انتشار اللغة العربية. أما العامل الثانى فكان تجاور اللغة العربية مع اللغة الفارسية كل هذا الأمد الذى تجاور فيه العرب والفرس فى أرض العراق . فقد كان أكاسرة الفرس يرسلون أبناءهم إلى العراق العربى لينشأوا بين العرب ، فقد نشأ بهرام جور مثلا فى الحيرة وتعلم اللغة العربية وقال بها الشعر ، بل كان بعض القواد الفرس

الذين قاتلوا العرب يتكلمون العربية وينظمون الشعر بها ، مثل مهران بن باذان الذى قاد معركة البويب . أما العامل الثالث فهو انتشار الآرامية ، وهى لغة سامية ، فى الأوساط السياسية والتجارية كلغة مكتوبة .

بدأت مرحلة التعريب الجنسى ، فقد أدى إقامة العرب فى مدن العراق إلى امتزاجهم بأهل البلاد. فقد تعاونوا جميعا فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، فكان نصف سكان الكوفة من الموالى وكانوا يحتكرون الحرف والصناعة والتجارة ، وقد قدموا إلى الكوفة كأسرى حرب،ثم دخلوا الإسلام وأعتقهم أسيادهم العرب فأصبحوا موالى لهم.وأدّى اختلاط العرب بأهل البلاد المفتوحة فى المدن إلى اختلاط الأنساب وتداخل الشعوب . وكان السبى أبرز عوامل مزج الدماء ، ولم تخل معركة من المعارك فى العراق من هذا السبى ، وتلقت الجزيرةالعربية أعدادا ضخمة من النساء والأطفال ، أما النساء فقد أدت الحياة المنزلية إلى تعريبهن ، وأما الأطفال فقد نشأوا فى الجزيرة العربية نشأة عربية أنستهم أصولهم الأولى .

حـ — القومية العربية فى مصر :

اتبع الفاتحون العرب سياسة التسامح واللين حتى يحببوا سكان مصر فى (القومية العربية) . وكان هؤلاء السكان طبقتين : الأقباط والروم . أماالأقباط فقد أتاح لهم العرب المسلمون الحرية والأمان ، بل إن الاسكندرية رغم أنها

نقضت الصلح مع المسلمين ، ورغب الجند العرب فى جعلها فيئا للمسلمين لأنهم فتحوها عنوة، ولكن عمر بن الخطاب أبى ذلك وأمر عمرو بن العاص ألا يجعل فيئا ولا عبيدا ، وأطلق المسلمون الحرية الدينية للأقباط كما أباحوا وظائف الدولة لهم . أما الروم الذين قاتلوا المسلمين ، فقد خيّرهم المسلمون بين أن يدخلوا فى ذمتهم و بين أن يؤمنوهم حتى ينصرفوا عن أرض مصر فلا يعودوا إليها أما طبقة الروم المسالمة فقد عوملوا معاملة الأقباط . وهناك طبقة ثالثة من الروم كان لها النفوذ قبل الفتح وعلى رأسهم المقوقس الذى كان يطمع فى حكم مصر باسم المسلمين كما حكمها من قبل باسم القسطنطينيّة ومنهم القائد كلاجى والقائد سبنديس اللذان انضما إلى المسلمين ، وقد استعان العرب بهذه الطبقة فى الحكم والإدارة .

اشترك فى فتح مصر جيش يتألف غالبيته من قبائل من عرب الجنوب ونفر من الصحابة والأنصار ، ثم توافد عليه أمداد من قبائل عربية شتى ، و بعض مسلمى الروم ومسلمى الفرس .

بعد انتهاء عمليات الفتح بدأت مرحلة استقرار العرب فى مصر وفكر المسلمون وفى مقدمتهم عمرو بن العاص فى اتخاذ الاسكندرية حاضرة لهم وقد بهرتهم عظمتها ، ولكن عمر بن الخطاب أبى ذلك ، و يعلل المؤرخون ذلك بالماء الذى يحول بينه و بين العرب ولكنا نرى أن السبب هو سياسة عمر العربية التى تهدف إلى عدم اختلاط الجند العرب بأهالى البلاد وحتى يظلوا

محتفظين بعروبتهم نقية خالصة ، ولذا بدأ عمرو فى بناء الفسطاط واتخذت الفسطاط فى أول أمرها شكلا قبليا كما كان الحال فى البصرة والكوفة ولكن سرعان ماتطورت الحياة القبلية إلى الحياة المدنية ، فهذه القبائل كانت تتجاور وتتلاحم وتتصاهر وتتزاوج وكان يجمع بينها المسجد والسوق، وظهر هذا التطور واضحا فى تمصير العرب للجيزة ، فقد قسمت أقساما غير قبلية .

وكما استقر الفاتحون العرب فى الفسطاط والجيزة فقد استقروا أيضا فى الاسكندرية ، وهنا لم يتبعوا مطلقا التقسيم القبلى ممّا أدّى إلى وحدة العرب من جهة كما أدّى إلى اختلاط العرب بغيرهم من السكان وكانت الاسكندرية تضم أخلاطا من الناس يغلب عليهم الطابع البيزنطى .

و بعد مرحلة الاستقرار ، بدأت مرحلة التعريب اللغوى ، والتعريب الجنسى . قبل الفتح كانت اللغة الرسمية ولغة السياسة والإدارة والعبادة هى اللغة اليونانية ، بينما كانت اللغة القبطية لغة الشعب المصرى . فلما أصبحت اللغة العربية هى لغة الطبقة الحاكمة ، كان من المنطقى أن يقبل المصريون على تعلمها كما ساعد انتشار الإسلام على انتشار اللغة العربية . ولكن رغم ذلك وجدت اللغة العربية عدة صعوبات . فليس بين اللغة العربية وكل من اللغة اليونانية واللغة القبطية صلة قرابة . ولذا ظل نطاق انتشار اللغة العربية محدودا حتى تم تعريب الدواوين فى عهد عبد الملك بن مروان ، ولم تتلاش اللغة القبطية إلّا بعد قرن .

أما التهريب الجنسى فقد كان محدودا فى أول الأمر ، فلم يكن بين المصريين والمسلمين العرب كثير من صلات التزاوج فى القرن الأول الهجرى . كما كانت سياسة عمر بن الخطاب (لافىء ولا عبيد) عاملا هاما على قلة السبى والتزاوج . غير أن الذى لا نجده فى مصر نجده فى بلاد النوبة وفى بلاد برقة. فقد كان صلح عبد الله بن سعد بن أبى سرح مع أهل النوبة كان على هدية رءوس منهم يؤدونهم إلى المسلمين فى كل سنة ويهدى لهم المسلمون طعاما وكسوة . هذا بجانب استمرار تجارة الرقيق بين مصر والنوبة . كما جاء فى الصلح مع أهل برقة أن يدفعوا ١٣ ألف دينار ، وأن يسمح لهم بأن يبيعوا من أبنائهم ما أحبّوا فى جزيتهم .

د — سياسة عمر بن الخطاب العربية :

اتبع عمر بن الخطاب سياسة عربية صميمة ترمى إلى تعزيز القومية العربية وإعلاء شأن العروبة . وكان أول مافعله فى سبيل تنفيذ هذه السياسة العربية هو إجلاء غير المسلمين عن الجزيرة العربية . ويرجع السبب فى هذه السياسة إلى ما أفضى به رسول الله قبل وفاته . من المضى فى إرسال الغزوة ضدّ الروم بقيادة أسامة بن زيد ، وتقسيم غلال خيبر ، وإخراج غير المسلمين من الجزيرة العربية . وقد صار إنفاذ الأمرين الأولين فى عهد أبى بكر ، ثم صار إقرار الأمر الأخير فى عهد عمر . فقد كان هناك جماعة من اليهود كانوا لا يزالون فى

خيبر ، وجماعة من النصارى فى نجران من أعمال اليمن ، وقد جاء سكان نجران إلى أبى بكر بعد وفاة الرسول وطلبوا منه تجديد العهد لهم ، فكأنهم بذلك كانوا يعتقدون أن العهد الذى قطعه الرسول كان عهدا شخصيا لا يربط خلفاءه من بعده ، فلما تولى عمر الخلافة أجلاهم واليهود . وقد ذهب أهل نجران إلى الشام والعراق ، ورفعت عنهم ضريبة الجزية مدة أربعة وعشرين شهرا . وأعطوا من الأرض ما يكفى حاجتهم . أما يهود خيبر فقد رحلوا إلى الشام بعد أن دفعت الحكومة لهم ما يوازى أو يقل قليلا عما كانوا يملكونه فى خيبر من الأموال .

قد تبدو هذه السياسة لأول وهلة سياسية إسلامية لا سياسية عربية ، باعتبار أن غرض عمر أن يبعد غير المسلمين عن الجزيرة العربية ، فتصبح للجزيرة صبغة إسلامية ، ولكننا نرى أنها سياسية عربية قبل أن تكون سياسية إسلامية ، فقد كان هدف عمر توحيد عرب الجزيرة العربية ، ولا شك أن وحدة الدين ستؤدى إلى تعزيز (القومية العربية) ، وخاصة أن يهود خيبر ومسيحى نجران كانوا عناصر عربية مختلطة ، وليست نقية العروبة ، كما كان مسيحيو نجران يعتمدون على تأييد الحبشة . فرأى عمر أن يصبح عرب الجزيرة صفا واحدا حتى تستطيع أن تقف أمام الفرس والروم خلال عمليات الفتح . وكانت سياسته ترمى إلى تماسك بلاد العرب ، وإدماج القبائل بعضها فى بعض ، قضاء منه على روح الجاهلية ، وعصبيته القبلية ، ليخرج العرب من هذا الصهر الاجتماعى أمة واحدة .

مضى عمر فى تنفيذ سياسة العربيـة . فمنع العرب من شراء الأرض أو الإقامة فيها فى البلادالمفتوحة ، ليظلوا قوة عسكريةمتحركة وليظلوا مجاهدين غازين ، تحت تصرف الدولة . ورأى عمر أن يكون كل مسلم جنديا من جنود الإسلام ، وأن يمنح من بيت مال المسلمين عطاء معينا مقابل خدماته .

أبى عمر بن الخطاب اعتبار العراق غنيمة لجنده ورفض تقسيمه بينهم على هذا الأساس . فبقيت أراضى السواد المفتوحة عنوة فى أيدى أصحابها يؤدون عنها الخراج ، رغم أنها جزء لايتجزأ من فئ المسلمين ، وكانت هذه الأرض لاتشترى ولا تباع . وكان هدف عمر من عدم تملك العرب الأراضى ألا يرتبطوا بها ، فالزراعة تؤدى دائما إلى الاستقرار . كما أراد عمر ألا يختلط العرب بالأهالى الأصليين حتى لاتختلط الأنساب . فيظل الجنس العربى نقيا خالصا ، ولضمان تنفيذ هذه السياسة فرض للعرب العطاء والأرزاق .

أمر عمر بن الخطاب قواده بأن لاتسكن الجيوش الإسلامية المدن وألا يخالطوا أهالى البلاد المفتوحة . ففى العراق مثلا ، أمر عمر قائده سعد بن أبى وقاص بأن يسكن الجنود العرب المعسكرات التى أقيمت فى البصرة والكوفة على أن تظل محتفظة بطابعها كمعسكرات لا كمدن للسكنى . ذلك أن عمر كان يعلم أن حياة المدن حافلة بالترف والرفاهية التى تصطبغ بصبغة غريبة عن الحياة العربية الإسلامية . ويعلل ابن خلدون فى مقدمته نهى عمر عن مخالطة الأجانب برغبته فى حفظ اللغة العربية . أما فان فلوتن فإنه فى كتابه (السيادة العربية)

يعلل ذلك بأن الفتح الإسلامي لم يكن هدفه إدماج شعب أو العمل على نشر دعوة دينية معينة بل هو احتلال بقوة السيف . ويرى ڤون كريمر فى كتابه (الحضارة الإسلامية) أن عمر قصد من هذه السياسة أن يجعل العرب طبقة عسكرية ممتازة . ولذا حرم عليهم امتلاك الأرض أو زراعتها .

بعد انتهاء عمليّات الفتح بدأ استقرار الجنود العرب فى العراق والشام ومصر . وقد اشترط عمر بن الخطاب فى بناء المدن الجديدة . كالبصرة والكوفة والفسطاط ألا يبنوها فى مكان يحول بينه و بين المدينة ماء . كما حرص على أن تظل معسكرات للجند لا مدنا عامرة فقد أمر ببناء البصرة والكوفة بالقصب ولكن سرعان ماأتت النيران على القصب فاستأذن العرب فى البناء باللبن فوافق عمر مضطرا ولكن بشروط ، فقال : « افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا فى البنيان وألزموا السنة تلزمكم الدولة » . وكان البناء باللبن هو الخطوة الأولى نحو استقرار وتحول البصرة والكوفة من معسكرين إلى مدينتين ، كما حرص عمر على عدم اختلاط العرب بأهالى البلاد الأصليين وكان عمر يدرك تماما أن سكنى المدن تؤدى إلى اختلاط الأنساب مما يؤدى إلى ضعف الجنس العربى ، ولكن سياسة عمر قد نجحت فى نشر الإسلام واللغة العربية فإن ابتعاد العرب عن السكان وترفعهم عن الاختلاط بهم أدى إلى محاولة هؤلاء السكان التقرب من الفاتحين فاعتنقوا دينهم و بدأوا فى تعلم لغتهم .

ومما يدل على سياسة عمر العربية معاملته للعرب النصارى . فقد أعترضوا على كلمة (جزية) التى تدل على الذل والمهانة فبدل عمر الكلمة ورضى أن يأخذ منهم مبلغا من المال كزكاة تساوى الزكاة التي يدفعها أبناء عمهم العرب المسلمون .

لكن عمر بن الخطاب تسبب ـ بغير قصد ـ فى تفتيت الوحدة العربية. فقد كان نظام عطاء الجند الذى سنه عاملا على بعث العصبية القبلية وتنابذ العرب فقد كان هذا النظام قائما على أساس السابقة فى الإسلام والنسب فكان يرتب الجند باعتبار القبائل والأجناس مما يؤدى إلى تميز لبعض القبائل على غيرها وكان يرتب العرب على حسب قرباهم من الرسول . ومن جهة أخرى فقد أدت سياسة عمر العربية فى عدم اختلاط العرب بالشعوب الأخرى المتحضرة إلى الاحتفاظ بالتقاليد البدوية بما فيها من تعصب وتنابذ .

ولكن لم يكن لهذا الانقسام بين العرب ولهذا التنافس بين القبائل العربية أثر يخشى منه على القومية العربية فى عهد عمر، فقد كان العرب جميعاً جنوداً يدعون إلى الميدان جنباً بعد حين فيسكن تنافسهم ، هذا بجانب حزم عمر وشدته .

لم يكتب لسياسة عمر العربية النجاح التام ، فإنه فى أواخر خلافته أذن لجنده العرب أن ينتشروا فى أرض العجم. وفى عهد عثمان بن عفان طاب للعرب الإقامة بالأمصار واقتنوا الأرض والضياع وتحولت المعسكرات إلى مدن عامرة، وتعلم العرب الزراعة وسائر المهن وتطوروا من سكنى الخيام إلى سكنى القصور ،

وحتّمت البيئات الجديدة على العرب الاختلاط بغيرهم من عناصر السكان الأصليين، فاختلطوا مع فلاحيهم فى أرضهم وفى المدن مع أرباب المهن المختلفة، وفى الجيوش حيث كانت هذه العناصر تقوم بإنشاء الطرق وإقامة الخيام ، وفى السبى حيث أقبل العرب على امتلاك الجوارى والإماء اللاتى اتخذوهن للتسرّى والإنجاب ، فقد كان العرب فى بداية استقرارهم فى الأمصار قلة بالنسبة للسكان الآخرين فانصرف همّ العرب إلى الاستكثار بالتناسل فاستكثروا من أمهات الأولاد فضلا عن الزوجات وتسابقوا إلى امتلاك الجوارى وأسرفوا فى التسرى.

ولكن تعرضت الوحدة العربية فى عهد عثمان بن عفان إلى خطر الانقسام ، فقد تعصبت جميع القبائل العربية على قريش ، فالقبائل العربية بنزعتها البدوية التى تجعلها تكره الحكم المركزى لم ترض يوما عن سيادة قريش . فقد كانت هذه القبائل ترى أنها دخلت فى الإسلام كما دخلت فيه قريش وهاجرت كما هاجرت ، ولكن قريشاً استأثرت بالخلافة والزعامة فى حين قامت هذه الفتوحات العظيمة على عاتق القبائل الأخرى . وكان بين العرب بيوت شرف أخرى ، مما جعلها تشعر بالحسد والبغض لقريش عامة والبيت الأموى خاصة .

٤ — القومية العربية فى العصر الأموى

كانت الدولة الأموية تعتز فى سياستها بالقومية العربية وتعمل من أجلها . فلم يتول القيادة والحكم إلّا جماعة من أبنائهم ، ومن أهل البيوتات العربية ، وجيوشهم كلها من أصول عربية لم يمازجها غير قليل من البربر فى شمال افريقية والأندلس .

وكان الأمويون أصحاب ثقافة عربية راقية ، فيهم المرونة السياسية والإدارية تمرنوا على قيادة الجيوش وحكم الناس منذ عهد الرسول ، وكان أكثر عماله منهم ، ولم يكن فى عماله ولا عمّال أبى بكر وعمر أحد من بنى هاشم .

كان هناك نظامان سياسيان كبيران : أولهما امبراطورية عربية خلقها العرب وحكمها العرب ، وصار حكمها وفاقا للنظم العربية نفسها ، وهذه الامبراطورية انتهت بسقوط بنى أمية . وثانيهما الامبراطورية الإسلامية العباسية التى كان العرب فيها جماعة من المسلمين ، والتى قام بها وحكمها جماعات إسلامية مختلفة منهم العرب ، ومع أن هذه الامبراطورية الإسلامية لم تكن عربية صرفة ، فإنها أخذت نظمها وروحها من النظم العربية السالفة ، وكان من مظاهر التأثير العربى فيها أن المسلم الأعجمى كان يسمى نفسه بأسماء عربية ،

ويتعلم العربية ويؤلف بالعربيـة ، ويدين بالإسلام الذى هو دين العرب ، ويقرأ القرآن الذى هو أفصح كتاب فى العربية .

فى عهد الدولة الأموية قام صراعان : صراع داخلى بين العرب أنفسهم وصراع بين القومية العربيـة والقوميات الأخرى . أما الصراع الداخلى فقد اتخذ أشكالا عدة ، منهـا العصبية القبلية التى أدت إلى تفتيت القومية العربية . لمـا ولى الأمويون الخلافة عادت العصبية إلى ما كانت عليـه فى الجاهلية، وكان بينهم وبين بنى هاشم فى الإسلام كالذى كان بينهم فى الجاهلية. وكانت تولية معاوية بن أبى سفيان انتصارا ثانيـا للحزب الأموى على الهاشميين . كما عاد النزاع بين القحطانيـة والعدنانية ، فـكان فى كل مصر إسلامى صراع وحروب ، ففى خراسان كانت الحرب بين الأزد اليمنية وتميم العدنانية، وفى الشام كانت الحرب بين كلب اليمنية وقيس العدنانية، ومثل ذلك فى العراق ، وفى الأندلس .

اعتمد معاوية على اليمنيين فى قتاله لأهل العراق ، وكان معظم قبائل الشام من اليمنية بينما أكثر قبائل العراق مضرية . ويروى الجاحظ فى كتابه (الحيوان) أنه كان بين القبائل العربية قبائل وضيعة وأخرى شريفة وقبائل ثالثة تقف موقفا وسطا بين الشرف والوضاعة . وكانت قبائل العراق تمثل الطبقة الوسطى من طبقات المجتمع العربى الإسلامى ، بينما كان الشام والحجاز يمثلون الطبقة الأرستقراطية، فقريش بالشام وأبناء الصحابة والمهاجرين بالحجاز.

أدرك زياد بن أبيه ، بعد أن ولى إمارة البصرة فى عهد معاوية ، خطورة العصبية القبلية على القومية العربية ، فاختزل أقسام البصرة الخمسة إلى أربعة ، كما اختزل فيما بعد أقسام الكوفة إلى أربعة ، كما وضع حدًّا لسلطة القبائل والعشائر ، إذ كانت عصبية الدم عندهم أكثر مما كانت عليه فى صحراء شبه الجزيرة العربية .

تزوج معاوية من قبيلة كلب اليمنية وأنجب منها ابنه يزيد ، ولذا ارتفع شأن كلب فى خلافة يزيد مما أثار الغيرة فى قلوب قيس وهى من مضر . ولذا قرت عين مضر لخروج عبد الله بن الزبير فى الحجاز فأسرعت إلى تأييده . كذلك اشتد الخلاف بين قيس وتغلب : فقد كانت تغلب تدين بالولاء لمروان ابن الحكم بينما وقفت قيس دائما موقف المعارضة لبنى أمية .

و بتولى الحجاج إمارة العراق دخلت الوحدة القومية ، والعصبية القبلية فى دور جديد . فقد أدّت ظروف عصر الحجاج والفترة التى تلته إلى تدخل الولاة فى تيار العصبية ، فأدى ذلك إلى أن تتخذ التكتلات القبلية هيئة أحزاب سياسية ، هذه تؤيد هذا الوالى وتتمتع بالنفوذ والسلطان ، وتلك تأخذ موقفا سلبيا . ولم يستطع الخلفاء الأمويون المتأخرون تجنب هذا النزاع ، بل انجرفوا فيه بعد سليمان بن عبد الملك فهبطوا من مكانهم السامى وأصبحوا كأنهم رؤساء أحزاب بدلا أن يكونوا رؤساء دولة و بذلك تضعضعت وحدة الدولة العربية الممثلة فى خليفتها .

وبجانب العصبية القبلية كانت هناك عصبية المدن . ففى خلافة على ابن أبى طالب كانت حرب الجمل بين البصرة والكوفة ، وفى حرب صفين كانت البصرة عثمانية والكوفة علوية ، وكان صراع مصعب بن الزبير والمختار هو صراع البصرة والكوفة .

تجلّت العصبية الإقليمية أثناء الحكم الأموى فى عدة مظاهر ، ففى عهد معاوية كانت البصرة عثمانية ، بينما كانت الكوفة علوية ، وكانت الشام أموية ، أما الجزيرة فكانت خارجية ، بينما كانت الحجاز سنية . وفى خلافة يزيد بن معاوية كانت العراق تؤيد الحسين بن على ، بينما بايع الحجاز عبد الله بن الزبير ، وكانت العصبية الإقليمية المحور الذى دارت حوله كثير من المفاخرات والقصائد الشعرية وحديث المجالس الاجتماعية ، فقد كان هشام ابن عبد الملك يعقد مجالسا يحضرها أهل الأمصار فيتفاخر كل فريق فيه بمحاسن مصرهم .

كانت هذه العصبية تضعف الوحدة العربية من جهة ، كما كانت تجعل أصحاب القوميات الأخرى من غير العرب يشعرون نحو العرب، بازدراء واحتقار، فإن العربى الذى كان يتعصب ضدّ ابن عمه من قبيلة أخرى ، كان يجتمع معه ضدّ الأجنبى من غير العرب ، أو على الأقل كانت كل قبيلة من العرب تنظر إلى الأعجمى كأنه من قبيلة أخرى .

ولنضع مبادئ الأحزاب العربية فى ميزان القومية العربية . رأى الخوارج

أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين . وليس بضرورى أن يكون الخليفة قرشيا، بل يصح أن يكون من قريش أو من غيرهم ، ولو كان عبدا حبشيا .

وقد يبدو أن هذه النظرية تخالف مبدأ القومية العربية ، لأن الخوارج يبيحون الخلافة لغير العرب . ولكننا نرى أن دافعهم إلى ذلك هو التطرف فى السخط على قريش ، فأعلنوا انتزاع الخلافة من قريش ورأوا أن تعقد الخلافة لأفضل أبناء الأمة الإسلامية عن طريق الاختيار المطلق من كل قيد ، بل ذهبوا إلى أن « عبدا حبشيًا » لا يقل أهلية للخلافة عن سليل أعظم القبائل حسبا ونسبا . ولم يطبق الخوارج نظريتهم حرفيا ، فهم قد اختاروا عبد الله بن وهب الراسبى أميراً للمؤمنين ، وهو وإن كان غير قرشى إلّا أنه كان عربيا .

اختلف المؤرخون حول العناصر الجنسية التى انضمت إلى حزب الخوارج وخاصة فى بادى أمره . فذهب البعض إلى أن الخوارج كانوا فى أوّل أمرهم عربا خلصا ، ومنهم من قال إن الموالى من غير العرب قد انضموا إليهم. ومهما كان الرأى فقد كانت الغالبية العظمى من الخوارج من البدو العرب، وقد انضم إليهم بعض الموالى إعجابا برأيهم الديموقراطى فى الخلافة ، فليس من الضرورى أن يكون الخليفة من قريش ولا من العرب ، فهم فى نظرتهم إلى الخلافة شعوبيون ولكن مع هذا لم ينضم إليهم من الموالى إلّا القليل ، لأن معظمهم بدو شديدو التعصب لجنسهم يحتقرون الموالى ويزدرونهم .

نادى أهل السنة بأن الخلافة فى قريش ، فكأنهم تعصبوا للجنس العربى، فيجعلون الخلافة فى أكبر القبائل العربية التى أعزها الله فجعل الرسول من بينها . بينما نادت الشيعة بانحصار الخلافة فى على بن أبى طالب وبيته . ونادى الأمويون بانحصار الخلافة فى البيت الأموى . وكل من الحزبين الأخيرين يهتم بعصبية الأسرة أكثر من العصبية العربية .

تجلت سياسة الأمويين العربية فى تعصبهم للقومية العربية ، وصراعهم للقوميات الأخرى . وتجلى هذا الصراع فى عدة نواح : الجزية ، والعطاء ، والخراج ، والآداب والعلوم والفنون ، والوظائف ، وتعريب الدواوين .

يرى فان فلوتن فى كتابه (السيادة العربية) أن خير دليل على شعور العرب نحو غيرهم من الشعوب الأخرى هو تلك العقيدة التى كانوا يدينون بها ، وهى أن أملاك الأجانب وأرضهم ثمن لتركهم لهم حرية البقاء على أديانهم ، كما أنها جزاء من الله للمؤمنين منهم. ولم يكن بد من أن ينتهى هذا الزعم بتعصب الشعب العربى لبنى جنسه وتشبثه بأرجحيته على من سواه من العناصر الأخرى .

كان الأمويون فى حاجة إلى الأموال الكثيرة فحادوا عن نظام عمر بن الخطاب الذى يعفى الداخلين فى الإسلام من الجزية والخراج فحرموا الموالى من الميزات التى دخلوا الإسلام من أجلها . فقد كان من اعتنق منهم الإسلام رفعت الجزية عنه ، وكان بعد إسلامه يهجر قريته ويهرع إلى المدن ليلتحق بالجيش الإسلامى ويكتب فى سجل العطاء . وقد هال الحجاج نقص الإيرادات

ففرض الجزية على المسلمين الجدد وألزمهم بالعودة إلى قراهم ، وأعاد وضع الخراج على الأرض التى أسلم أصحابها .

كان عمر أول من دون الدواوين وفرض العطاء سنة ٢٠ هجرية ، ورتب المسلمين حسب قرابتهم للرسول وسابقتهم فى الإسلام . ولم يتبع الأمويون نظام عمر ، فقد أنقصوا عطاء كل من أثار سخطهم كالشيعة والموالى ، كما استبدوا بما فى بيت المال من أموال ، فكانوا يعطونها لأفراد أسرتهم وخاصتهم

احتفظ الموالى بلغتهم فترة طويلة ، ففى معسكر المختار لم تسمع كلمة عربية واحدة . وكان بعض الولاة العرب يجيدون اللغة الفارسية ، مثل المغيرة بن شعبة وزياد وابنه عبيد الله ، واقتبست اللغة العربية كثيرا من الكلمات الفارسية . واصطبغ الغناء والموسيقى العربية بالصفة الفارسية ، وتعلّم العرب كثيرا من الآلات الموسيقية الفارسية . وفى أواخر عهد الدولة الأموية حوّل الفرس الكتابة العربية إلى نمط آخر لم يكن يعرفه العرب ، وهو نوع الكتابة التى اشتهر بها عبد الحميد الكاتب ومدرسته .

كانت الآداب الفارسية أكثر تأثيرا فى الأدب العربى من الآداب اليونانية وسبب ذلك أن دولة الفرس ذابت فى الدولة العربية وكانت حياة الفرس الاجتماعية تحت أعين العرب فتذوقوا آدابهم ، أما الحياة اليونانية فكانت بعيدة عن معيشة العرب .

فى عهد عبد الملك بن مروان نقلت دواوين مصر والشام والعراق من

القبطية والرومية والفارسية إلى العربية ، فكان ذلك من أهم الأسس التى أقيمت فى بناء القومية العربية فى الممالك الإسلامية كافة . وقطع به آخر مظهر من مظاهر الأعجام فأصبحت البلاد العربية عربية بأوضاعها سائرة إلى التعريب بسكانها .

ثم تعريب دواوين العراق من الفارسية إلى العربية فى ولاية الحجاج ابن يوسف ، وكان هذا التعريب انقلابا كبيرا فى نظم الإدارة المالية وقد استاء منه الموالى الفرس وكانوا لا يرون ضرورة للتعريب ، فقد كانوا يكتبون العربية فى ديوان كسرى ، كما كان هناك كثير من الولاة والموظفين يجيدون التحدث باللغة الفارسية . وينسب بعض المؤرخين التعريب إلى أسباب تافهة . فيذكر البلاذرى فى كتابه (فتوح البلدان) أن السبب هو موت كاتب الحجاج الفارسى زاذان فروخ الكاتب الفارسى فعهد الحجاج بالكتابة إلى عربى ، فقام بتعريب الدواوين . ويذكر الجهشيارى فى كتابه (الوزراء والكتاب) أن سبب التعريب هو اختلاف زاذان فروخ الكاتب الفارسى مع صالح بن عبد الرحمن الكاتب العربى، وقيام صالح بتعريب الدواوين نكاية فى زميله الفارسى . والحقيقة أن هذا التعريب كان نتيجة سياسة مرسومة ، ترمى إلى صبغ الدولة بالصبغة العربية وإحياء القومية العربية من جهة ، وإلى ضبط حسابات الدولة من جهة أخرى . إذ كانت حسابات الدولة فى يد صغار الموظفين الذين كثيرا ما زوروا وتلاعبوا فيها ، كما أن العرب فى عهد عبد الملك قد انتقلوا من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة ، وظهر بين العرب ومواليهم

كتابٌ مهرة استطاعوا أن يحلّوا محلّ الكتّاب الفرس .

أدرك الفرس خطر هذا التعريب على القومية الفارسية فحاولوا أن يمنعوه أو يضعوا العقبات فى طريقه. فقد حاول الفرس أن يرشوا صالح بن عبدالرحمن ليظهر عجزه عن التعريب ولكنه أبى عليهم ذلك . ولمّا أمر هشام بن عبدالملك عامله خالد القسرى بتغيير النظام الفارسى القديم الذى يقضى بجباية الخراج فى النيروز ، وهو أول السنة الفارسية ، حاول الفرس أن يرشوا خالدا بمائة ألف دينار ليثنى هشاما عن عزمه ولكن هشاما أصرّ على رأيه .

حرص عبد الملك بن مروان على صبغ جميع مرافق دولته بالصبغة العربية ، فأمر بضرب سكة عربية جديدة . وكانت الدنانير حتى ذلك التاريخ كلها رومية . وبعد فراغ عبد الملك من ضرب الدراهم والدنانير العربية كتب إلى عمّاله بالأمصار يأمرهم أن يقتصر الناس على التعامل بالسكة الجديدة ، وأن يتهددوا بالقتل كل من تعامل بغيرها من العملة القديمة .

وهكذا اتبع الأمويون سياسة عربية. ويرى فان فلوتن فى كتابه (السيادة العربية) أن هذه السياسة جعلت من الأمويين خطرا شديدا على الدعوة الإسلامية . فقد كانت تلك الثورة التى قامت فى الولايات الشرقية للدولة الإسلامية وخاصة خراسان من جراء اضطهاد بنى أمية للموالى ، تلك الثورة التى لم تلبث أن تطورت إلى حركة دينية ترمى إلى إسلام أوسع نطاقا وأكثر عالمية وأقل حرجا مما كان يفهمه الأمويون، تدل على مدى عالميته ، تلك العبارة:

« إن الإسلام لا يعرف المفاضلة بين الشعوب » .

شهد القرن الأول الهجرى صراعا بين العرب والموالى ، أو بعبارة أخرى بين القومية العربية والقوميات الأخرى ، فقد تعصب كل من العرب والموالى لقوميتهم مما أدى إلى هذا الصراع العنيف .

الموالى فى نظر مؤرخى التاريخ الإسلامى هم المسلمون من غير العرب ، وكانوا فى الأصل أسرى حرب فى منزلة الرقيق ثم أسلموا فأعتقوا وأصبحوا موالى ، فقد اقترن إسلامهم بدخولهم فى خدمة العرب ، وتحالفهم معهم كى يعتزوا بنصرتهم وقوتهم ، فكأنهم أصبحوا فى نفس الوقت موالى حلف وموالاة .

تجلّت عصبية العرب واعتزازهم بقوميتهم العربية فى نواحى عديدة . احتقر الأمويون بتأثير العصبية جميع الأقوام غير العربية وعدوهم فى منزلة اجتماعية أدنى من العرب ، وأبعدوهم لذلك عن السياسة والقيادة،ففرضوا عليهم من الضرائب أكثر مما فرضوه على العرب . فالعصبية تبدأ للبيت الأموى ثم للقبيلة ثم تتوسع أخيرا فتكون للأمة العربية .

اختلف المؤرخون والكتّاب فى تحديد عوامل تعصب العرب على الموالى . فينسب أحد الكتاب هذه العصبيّة إلى اعتزاز العرب بقوميتهم العربية ورغبتهم فى جعل الأمصار المفتوحة بلاداً عربيةخالصة . أما فان فلوتن (السيادة العربية) فيرى أن العرب لم يكونوا يحترمون سوى مهنة الحرب ،

ولذا اعتبروا الموالى طائفة منحطة لا تكاد تختلف عن طائفة الرقيق فى شىء لازدرائهم المهن التى كانوا يزاولونها .

ومن أسباب تعصب العرب على الموالى غيرة العرب على الإسلام واللغة العربية . فقد شعر الموالى أن معظم الموالى لم يعتنقوا الإسلام لاقتناعهم بمبادئه القويمة ، ولكن لمصالح شخصيّة ذاتية . فيذكر كريمر فى كتابه (الحضارة الإسلامية) أن بعض الموالى ظلوا مخلصين فى قرارة نفوسهم لمعتقداتهم الدينية القديمة وقبلوا الإسلام ظاهريا . ويقول ديمومبين (النظم الإسلامية) إن الملاّك من الموالى قد اعتنقوا الإسلام ليخضعوا لنظام الزكاة الإسلامى ، لكنهم احتفظوا بدينهم وعاداتهم . ولهذا لم يقتنع العرب بما نادى به الموالى بأن إسلامهم قد ساواهم بالعرب . ورأى العرب أن الإسلام لا يرفع الأجنبى إلى المستوى الذى يؤهله للمساواة بالعربى الأصيل ، بل اعتبر العربى نفسه دائما من الأمة الحاكمة التى عهد إليها بحكم الأجانب .

كان موالى العراق أكثر من موالى الشام رغبة فى تعلم اللغة العربية ، وأدّى هذا إلى تأثر اللغة العربية باللغة الفارسية ، ودخول كلمات أعجمية إلى اللغة العربية وانتشار اللكنة الفارسية بين العرب مع فشو اللحن ، فكان عبيد الله بن زياد والى العراق ممن تميز باللكنة الفارسية . وشعر أبو الأسود الدؤلى بالغيرة على اللغة العربية فاستأذن زياد بن أبيه فى وضع علم النحو ، كما كانت الغيرة على اللغة العربية من عوامل تعريب الدواوين .

تجلّت عصبية العرب على الموالى واعتزازهم بقوميتهم العربية فى عدة مظاهر . فكان العرب يطلقون على الموالى من أبناء الفرس ، وخاصة الذين يسكنون الكوفة لفظ (الحمراء) كما كانوا يسمونهم (العجم) ،وكانوا يطلقون اسم (الهجين) على من كان أبوه عربيا وأمه أعجمية ، ويطلقون لفظ (المذرع) على من كانت أمه عربية وأبوه أعجميا ، وكانت العرب فى الجاهلية لاتورث الهجين . كان العرب لا يصلون وراء إمام من الموالى ، ولا يكنون الموالى بالكنى ولا يدعونهم إلّا بالأسماء والألقاب ، وكان العربى إذا أراد الزواج من بنات الموالى خطبها من مولاها وسيدها ، لامن أبيها أو أخيها ، وإن زوّجها أبوها أو أخوها اعتبر العقد باطلا . أما زواج الموالى من عربية فهو جريمة لا تغتفر ، وللوالى أن يفرق بينهما فى الحال . وكان العرب يستخدمون الموالى فى الحروب كمشاة ويرفضون أن يشاركوهم فى امتطاء الجياد. واعتقد العرب أن الموالى لم يخلقوا إلّا للحرف والمهن الوضيعة .

وكما تعصّب العرب على الموالى ، فقد تعصّب الموالى على العرب واعتزوا بقوميتهم وحاربوا القومية العربية . فقد ظهر بين الموالى الفرس نزعة قومية تدفعهم إلى إحياء المجد الفارسى القديم . وفى ذلك يقول ابن حزم فى كتابه (الملل والنحل) : « إن الفرس كانوا من سعة الملك وعلوّ اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر فى أنفسهم حتى إنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء ، وكانوا يعدون سائر الناس عبيدا لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة

عنهم على أيدى العرب ، وكان العرب أقل الأمم عند الفرس خطرا ، تناظمهم الأمر وتضاعفت لديه المصيبة ، ورامو كيد الإسلام بالمحاربة » .

أدّى التنافس بين القومية العربية والقومية الفارسية فى العصر الأموى إلى ظهور الشعوبية ، أو بعبارة أخرى « الاعتزاز بالقومية » التى بدأت تنادى بمساواة العرب بالموالى ثم تطورت فى العصر العباسى فصارت تنادى بأن الفرس أرفع درجة من العرب . فزعم الشعوبيون أن أخطب الناس الفرس ، وأن الفرس أكثر معرفة من العرب بأمور الحرب .

نتجت الشعوبية عن نزعة قومية لدى الفرس خاصة حيث كانوا يحلمون بإحياء المجد الفارسى وإيقاف توسع الإسلام على حساب الزرادشتية عند من حافظوا على زردشيتهم ، وقد ظهرت نزعة الموالى القومية فى العصر الأموى بصبغة إسلامية ، فتظاهرت بأنها تدعو إلى المساواة بين المسلمين مهما اختلفت عناصرهم ، وأنه لافضل لأحد على آخر إلّا بالتقوى . وهكذا أنكر أصحاب هذه النزعة استئثار العرب بالسلطة وتفوقهم فى الامتيازات ودعوا بالمساواة .

يرى ڤلهاوزن فى كتابه (الدولة العربية) أن العرب لو عاملوا الموالى معاملة تنطوى على المساواة أو مزجوا بين القوميتين لما أوجدوا أعداء بين صفوفهم ، فإن العرب بعدم مساواتهم بالموالى بهم أحيوا القومية الفارسية القديمة ، وأعطوا الموالى سلاحا يشهرونه فى وجوههم . ومن الإنصاف أن نقول إن الأمويين لم يتعصّبوا ضدّ من كان يعرف من الموالى بصلاحه وتقواه

أو بعلمه وأدبه . وكان للموالى نصيب أكبر من نصيب العرب فى الوظائف العامة ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالإدارة المالية .

تابع الخلفاء الأمويون سياسة الفتح، فأرسل معاوية بن أبى سفيان جيوشا غزت السند و إفريقية ، كما قام الحجاج فى عهد عبد الملك بن مروان بفتوح فى الأطراف الشرقية للدولة . وفى عهد الوليد بن عبد الملك فتحت السند وبخارى وخوارزم ، وسمرقند إلى كاشغر ، كما فتحت الأندلس . وأثرت هذه الفتوح فى القومية العربية ، فقد أدّت إلى تعريب لغوى وتعريب جنسى اختلف مداه من مكان لآخر ، كما أدّت إلى صراع بين القومية العربية والقوميات الأخرى.

أدّى انتشار الإسلام نتيجة الفتوحات الأموية إلى اتساع رقعة الدولة العربية ، فقد منح الإسلام العناصر المختلفة التى اعتنقته مثلا عليا جعلتهم مستعدين للتضحية فى سبيله . وأدت هذه المثل العليا إلى مشاعر وآمال مشتركة، وكانت الدولة التى أسسها العرب هى الدولة العظمى الوحيدة التى قامت باسم الدين والتى اشتقت منه جميع نظمها ، وأصبح الإسلام هو الرابط بين العناصر المتنافرة التى تمثل قوميات عديدة ، وأصبح الإسلام بالنسبة لهذه العناصر مسألة اقتصادية واجتماعية أكثر منها فكرة دينية .

ساعد انتشار الإسلام على انتشار اللغة العربية ، فحيث تغلب الإسلام على الديانات الأخرى تغلبت العربية على اللغات السابقة ، ولم يستعص على ذلك

إلاّ الأقسام الشرقية من الامبراطورية الساسانية ، فقد انقادت للإسلام ولكن اللغة العربية لم تلق نجاحا ، فقد استطاعت اللغة الفارسية أن تمنع اللغة العربية، وأن تفصل هذا الفصل العجيب فى تاريخ الإسلام والعروبة بين اللغة والدين ، وأن يكون عملها هذا سبيلا نهجته شعوب أخرى غيرها فى القرون المتأخرة ، ولا شك أن هذا لايفسر تفوق القومية الفارسية على القومية العربية فى هذه المناطق .

ومما هو جدير بالذكر أن انتشار الإسلام فى مناطق ماوراء النهر أو بلاد السند كان أوسع من انتشار اللغة العربية بينما سار الإسلام واللغة العربية جنبا إلى جنب فى فارس والعراق والشام ومصر وبرقة وبلاد المغرب ويرجع السبب فى ذلك إلى قرابة اللغة العربية من اللغات السامية والحامية ،فقد كانت اللغات التى يتحدث بها أهل العراق والشام من أصل آرامى وسامى ولذا وفقت اللغة العربية فى صراعها معها ، كما وفقت فى صراعها مع اللغات الحامية : المصرية ، الليبية ، البربرية .

كما نلاحظ أن انتشار اللغة العربية فى الأمصار المفتوحة فى العصر الأموى كان مقصورا على المناطق التى تتشابه مع الجزيرة العربية فى بيئتها أو تشاركها فى طبيعتها أو بيئتها. فمنطقة الهلال الخصيب ليست إلاّ امتدادا للجزيرة العربية،

وليست مصر بصحاريها الواسعة غريبة عن البيئة العربية ، أما قبائل شمال إفريقية فلا تختلف فى طرق معيشتها عن قبائل الجزيرة العربية . أما فيما وراء دجلة حيث كان معظم أجزاء الامبراطورية الفارسية ، فإن اللغة العربية لم تجد بيئة تشابه بيئتها الأصلية . ولعل هذا يفسر لنا تقهقر اللغة العربية فى إيران . ونلاحظ أن البلاد التى تحتلها اللغة العربية بلاد متشابهة المظاهر تغلب عليها الصحارى الرملية والتلال القاحلة ، ومع هذه مساحات ممدودة من الواحات والوديان الخصيبة ، بحيث يمكننا إن نقول أن المناطق التى امتدت فيها اللغة العربية هى (بلاد الجمل) .

لعبت اللغة العربية دورا كبيرا فى مزج القوميات والحضارات والعناصر المختلفة المتنافرة فى الأمصار المفتوحة. فقد أدّى استعمال اللغة العربية إلى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافها اندماجا قويا فى الحياة القومية التى كان يحياها العنصر العربى الحاكم ، إذ ربطت اللغة العربية جميع البلاد برباط معنوى قوى . وكانت العناصر الأجنبية وقد أصبحت شعبا إسلاميا تزداد إسلامية كلما اقتربت لغتهم من لغة القرآن .

حاول عمر بن الخطاب ـ كما رأينا ـ أن يمنع اختلاط العرب بالشعوب الأخرى بوسائل مختلفة . ولكنه لم يستطع أن يحول بين العرب والسبى ، فاستمرت عملية التعريب اللغوى والجنسى وامتزاج القومية العربية بالقوميات الأخرى . ولعبت الفتوح الأموية دورا كبيرا فى ذلك . فقد امتازت هذه

الفتوح الأموية عن فتوح الخلفاء الراشدين أنها أضحت لونا من التوسع ، كما أن الأمصار المفتوحة التى جاءت فى أعقاب فتح مصر فى المغرب والمشرق اقتضت صراعا عنيفا ، نتج عنه سبى كثير . ونفذ هذا السبى إلى صميم الحياة العربية فى مظهرين : مظهر الخدم من الجوارى والعبيد الذين كانوا يقومون على أمر البيوت العربية ، ومظهر الزوجات اللاتى كن مكان التسرى من العرب .